وفصّل بعضهم قال من وُلد والطالع للمشتري كان رئيس دين او وزيرًا او شريفًا او قاضيًا او فيلسوفًا او حكيمًا او تاجرًا او صرّافًا . او كان الطالع للمرّيخ جآء حربيًّا او مفسدًا او سفّاحًا او طبيبًا (كذا) او حلّاقًا او جزّارًا او صوّاغًا او طبّاخًا او خبّازًا او كل ذي صناعةٍ تعالجَ بالنار . او كان الطالع للزهرة كان من مواليدهِ الملكات والغادات والصيادلة والخياطون والجوهريون والبزّازون (تجار الانسجة) ومعاقرو الخمر واللاعبون بالنرد (الطاولة) وقطّاع السبل . او لعطارد فاللاهوتيون والفلاسفة والمنجمون والمهندسون والحُسّاب والمؤلفون باللاتينية (كذا) والمصورون والصنّاع اصحاب الاعمال الدقيقة من رجال ونسآء . اما اصحاب زحل فيأتون فظاظًا قساة القلوب معاندين وقحين متطوحين ظلّامًا غشّاشين نَهِمين قَرِمين سكيرين مشاغبين غدّارين اشدّآء متعجرفين عيونهم دموية وشعورهم حمرآء يباشرون من الصنائع كل ما فيهِ نارٌ وحديدٌ ممحىً . انتهى

على ان هذا الفنّ مهما يكن فيهِ من الخرافات والترّهات فقد نشأ عنهُ عدّة فوائد في علم الهيئة اجلّها تعيين مواقع بعض النجوم ومطالعها مما تُوصّل بهِ الى معرفة حركات بعض الثوابت بالمقابلة بين مواقعها المنصوص عليها في ازياج المتقدمين ومواقعها في الازمنة المتاخرة والاستدلال على حركة الشمس وانتقالها بين النجوم بتغير ما بينها من الابعاد والتنبّه الى مبادرة الاعتدالين بتغيُّر مطالعها الى غير ذلك من الفوائد التي لا نطيل باستقصآئها فكان مثل اولئك القوم في تعيين الطالع للبحث عن المغيّبات مثل اهل الكيميآء في البحث عن الحجر الكريم لاحالة بعض المعادن الى بعض فانهم وُفّقوا في

ذلك الى معرفة كثيرٍ من الاسرار الكيماوية التي انتفع بها المتأخرون مما سنفرد للكلام فيهِ فصلاً مخصوصاً ان شآء الله

الطاعون والتبغ[1]

قد قلقت اوربا في هذه الايام لما وقع فيها من حوادث الطاعون وخافت ان يكون من فعلهِ فيها مثل ما مرّ بها من فتكهِ الهائل في الزمن السالف . وذلك ان عاملاً في المختبَر المخصوص بجراثيم هذا الدآء في مدينة وينّا مرض وتوفي في اعراضٍ تشبه اعراض هذا المرض الخبيث وبعد تشريح الجثة ظهرت لهم جراثيمهُ فيها وفي الغد ظهر مثل تلك الاعراض في ممرّضةٍ كانت تخدمهُ وفي اليوم الثالث اصيب الدكتور مولر الذي كان يعالجهُ بالاعراض نفسها

(١) التبغ لفظة دخيلة قيل هي من الهندية واصلها تاباكوس وقيل هي تعريب تاباغو وهو اسم الجزيرة التي وجدهُ الاسبانيول فيها اولاً فسموهُ باسمها والمشهور في ضبطها اسكان الباء مع فتح التآء او كسرها والوجه الفتح فيهما كما لا يخفى الا ان استعمال هذا اللفظ قليل ولا سيما في هذه البلاد فانهم يسمونهُ بالدخان وهو الاسم الذي أُطلق عليهِ اول ما عُرف في بلاد العرب ومنهُ قول بعضهم مؤرخًا

سألوني عن الدخان وقالوا هل لهُ في كتابنا ايمآء
قلت ما فرّط الكتاب بشيءٍ ثم ارّخت يوم تأتي السمآء

يريد يوم تأتي السمآء بدخان (الآية) فاكتفى منها بما ذكرهُ وجُملهُ ٩٩٩ . وجآء ذكرهُ في ريحانة الالبآء لشهاب الدين الخفاجي في ترجمة السيد محمد بن برهان قال وكان يومًا بمنزلي مع الاخوان فارادوا الجري على العادة في الدخان فابى ذلك لانهُ يراهُ من منكرات الزمان فقلت لهُ بديهًا

وقد وقفنا في احدى المجلات العلمية الفرنسوية على مقالةٍ في هذا المرض لاحد حذاق الاطبآء ذكر في جملتهـا ما نعرّبهُ في هذا الموضع تحصيلاً قال

ان طبيباً هولندياً من اهل القرن السابع عشر يقال لهُ اسبرَنْد شهد الوبآء الذي حدث في نيماغ من ديمبروك سنة ١٦٣٦ و١٦٣٧ وخالط المصابين بهِ واصيب بهِ غير مرةٍ ونجا وكان الحرز الوحيد الذي اتخذهُ للتحصن منهُ شرب الدخان وقد قصّ هذا الطبيب عن نفسهِ ما كان يفعلهُ ايام ذلك الوبآء قال

كنت كل يومٍ عند الساعة العاشرة من الصباح اشرب قصبةً من التبغ وبعد الغدآء اشرب قصبتين او ثلاثاً وكذلك بعد العشآء واذا اتفق لي شربت في سائر النهار ايضاً نحو هذا المقدار . وفيما خلا ذلك كنت اذا شعرت باقلّ انقباض من كراهة رائحة المرضى او المنازل التي فيها اصابة بهذا

فديتك جُد باذنٍ للندامى ليأتوا بالدخان بلا توانِ
تريد مهذّباً لا عيب فيهِ وهل عودٌ يفوح بلا دخانِ

فقال بديهاً واجاد

اذا شُرِب الدخان فلا تلمني على لومي لابنآء الزمانِ
من الاخوان اهوى طيب خلقٍ كمثل المسك فاح بلا دخانِ

اما استعمال الشرب لامتصاص دخانهِ فمع كونهِ غريباً في بادي الرأي ليس بالبعيد عن الصلة اللغوية وقد تكلموا بهِ في النظم والنثر كما رأيت وربما استعملوا في معناهُ التدخين ايضاً وقد اجتمعا في قول صلاح الدين الكوراني الحلبي

لعمرك لم اشرب دخاناً لاجل ان تُسَرَّ بهِ نفسٌ تدانى خروجها
ولكن زنابير الهموم لسعنني فدخّنتُ حتى يستبين خروجها

المرض اترك كل شغلٍ لي مهما كان مهماً وفي ايّ ساعةٍ كنت من النهار فاشرب قصبتين او ثلاثاً لاني ايقنت ان هذا الصنف من النبات افضل واقٍ من الوبآء بشرط ان يكون من جيد التبغ وناضجهِ ولذلك فاني بعد اعتمادي عليهِ لم اعد اتخذ شيئاً من الاطياب ولا من كل ما يوضع في الفم في مثل هذه الحال . وقد استهلكت في مدة الوبآء مقداراً عظيماً من هذا النبات الفاخر ولكني بعد انقضآء تلك المدة اقلعت عن استعمالهِ مخافة ان اعتادهُ فأُفرط فيهِ كما يفعلهُ كثيرون اليوم

واني بينا ذهبت يوماً لعيادة مصابٍ بالمرض يقال لهُ استرالتن لم اكد ادخل غرفتهُ حتى اوشكت ان اختنق لخبث الرائحة التي كانت تنبعث منهُ وشعرت لوقتي اني قد أُصبت بالعدوى فقصّرت عيادتي ما استطعت ثم خرجت من ذلك المنزل وانا شاعرٌ بدُوار وغثيان وكربٍ شديد وانقباضٍ في القلب مما لم اشكّ معهُ اني قد أُصبت بسمّ الوبآء . فانقلبت الى منزلي وشربت ست او سبع قصبات من التبغ الفاخر فلم تلبث تلك الاعراض ان زالت عني بجملتها ووجدت في نفسي من الرَوح والعافية ما لم اتوقف معهُ عن معاودة مرضاي . وقد اصابني مثل هذه الاعراض ثلاث او اربع مرات في المدة التي عالجت فيها المصابين في نيماغ وكنت كل مرةٍ اتداوى بالعلاج نفسهِ . انتهى

قال الكاتب ومن المعلوم ان هذا الوبآء قد تقلص ظلهُ عن اوربا من عدة قرون بعد ان اجتاحها مدةً تزيد على الف سنة واذا تفقدت حوادثهُ بعدها وجدت ان وطأتهُ كانت تخفّ تبعاً لزيادة استعمال التبغ وزيادة انتشارهِ

ولا سيما حيث كان يُستعمَل شرباً فان هذا الصنف من النبات دخل اوربا سنة ١٥٤٨ حين أُهدي الى شرلكان وفي سنة ١٦٢٤ ابتدأت زراعتهُ تعمّ في فرنسا لشيوع استعمالهِ بين جميع الطبقات وبعد ذلك اخذ ينتشر في مملكةٍ مملكةٍ حتى صار يُنفَق منهُ مقادير لا تُحصَى وأُهملت عادة السعوط بتكاثر عادة الشرب فانتشرت سحائب دخانهِ المشحون بالنيكوتين في هوآء اوربا عامّةً

قال ولعلّ قائلاً يقول فما بال هذا الوبآء لم ينقطع من آسيا مع كثرة استعمالهِ فيها وكيف ظهر حديثاً في العجم وهو اليوم في الهند الانكليزية . والجواب ان لذلك اسباباً منها ان القوانين الصحية في آسيا قاصرةٌ جدًّا بالقياس الى ما هي عليهِ في اوروبا ومنها ان المستهلك من التبغ في البلاد الآسويةاقلّ جدًّا مما هو عليهِ في الممالك الاوربية ومنها وهو الاهمّ ان صنف التبغ المشروب عند هؤلآء اذا فحصنا تركيبهُ وجدنا العنصر الفعّال فيهِ اقلّ مما في دخاننا بثلاثة او اربعة اضعاف . انتهى بتصرف والله اعلم

قولٌ جديد
في تكوُّن الجبال وانحلالها

اختلفت العلمآء في نشوء الجبال على اقوالٍ شتى نورد منها في هذا الفصل آخر ما انتهى اليهِ البحث وهو القول الذي اجمع عليهِ اكثر المحققين في هذه الايام

وقبل الخوض في ذلك لا بد ان ننبه الى أن الارض كانت في اول

امرها قطعةً من السديم المشتعل تدور على نفسها حول الشمس وبانبعاث الحرارة منها تكاثفت اجزآءٌ منها وتألفت بشكل نواةٍ مركزية ثم اخذت تلك النواة تجذب اليها سائر الاجزآء المتكاثفة حولها الى ان اجتمعت كلها كتلةً واحدة وتناقصت الحرارة المنبعثة عنها وحينئذٍ اخذت الابخرة المآئية المتطايرة منها تنعقد سحاباً ثم تنزل امطاراً وسيولاً فاذا لاقت سطحها ردّتها الحرارة بخاراً ثم سقط البخار مطراً الى ان برد ظاهر تلك النواة فاصبح قشرةً صلبة . قالوا واستمرّ باطنها يتقلص ويجتمع بانبعاث الحرارة منهُ الى ان حدث فراغٌ بين القشرة وما تحتها من الموادّ كما يحدث لمن ضمر جسمهُ بعد السمن وحينئذٍ تجعدت تلك القشرة فكان بعضها غائراً وهو الاودية والقيعان ولبث البعض الآخر شاخصاً وهو الجبال

وعليهِ فتكون سلاسل الجبال بمنزلة غضونٍ مستطيلة نشأت في القشرة الارضية عند ضمورها وتتابع تكوُّن تلك السلاسل شيئاً فشيئاً من ناحيتي القطبين الى المعدّل . الا انها بتوالي الامطار والسيول وسائر الفواعل الطبيعية اخذ ينهار منها الشيء بعد الشيء حتى تبدلت هيئتها الاصلية ولم يبقَ من اكثرها الا قممٌ شاخصة هي الجبال المعروفة اليوم وان هي على الحقيقة الا اطلالٌ من بقايا تلك السلاسل

لا جرم اننا اذا حاولنا اليوم الاستدلال على ما كانت عليهِ الارض في اعصرها الاولى لم نجد في سطحها من الهيئة التي كُوِّنت عليها الا آثاراً عافية وذلك اننا كيفما انقلبنا لا نرى الا مجاري انهار وكثبان رمل واراضي مؤلفة من الطفال والابارق وغيرها مما احدثتهُ المياه وليس من اصل الخلق في